المحاضرة السابعة: الفتح الإسلامي

تمهيد:

كان حال الشمال الإفريقي قبل الفتح الإسلامي، يلفظ آخر أنفاسه السياسية، والعسكرية، والدينية، والاجتماعية، فبعد دخول القائد جستنيان قرطاجنة واستسلام آخر ملوك الوندال جليمر أخذت الدولة في انحدار سريع وتساقط غريب حيث كانت الإدارة المدنية فيها في غاية من الفساد، كما أن الاضطهاد الديني والاستغلال المالي وفوضى الجيش أصبحت تنذر الإمبراطورية بأخطار عظيمة. كما أصيبت الكنيسة الإفريقية بأزمة زعزعت أعماقها، مذاهب منشقة وفساد إداري، وعدم نظام، وإشاعة الرشوة، وتسلط البيزنطيين، وانقسام البربر، وفساد العدالة الاجتماعية، والظلم والجور، مما كان مهدا خصبا لانتشار الإسلام وقبوله كدين فيه خيرا الدنيا والآخرة.

يعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب نتيجة حتمية اقتضتها طبيعة الحركة الإسلامية التي كانت تهدف إلى نشر الدين الإسلامي وتوسيع امتداد الدولة الإسلامية من الناحية الغربية، وتصفية الإمبراطورية البيزنطية المعادية للإسلام، خصوصا وأن بلاد المغرب آنذاك كانت ولاية من ولايات التابعة لها، بالإضافة إلى ذلك أن الفتح جاء تامينا لفتوحات مصر بالأساس.

استغرق الفتح لبلاد المغرب مدة طويلة حوالي سبعين سنة، وهذا راجع لعدة أسباب من بينها صعوبة البلاد من الناحية الجغرافية، المقاومة البربرية، بالإضافة إلى ذلك الصراعات مع القوى البيزنطية، كما أنها توقفت فترة بسبب الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. ويعد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه أول من أذن بانطلاق عملية الفتح في بلاد المغرب وضمها إلى دار الخلافة بالمشرق، غير أن الجهاد في هذه المنطقة لم يكن بالمهمة السهلة، إلا أنها انتهت بنصر عظيم.

إذا تتبعنا مراحل الفتح الإسلامي نجده قد مر بثلاثة مراحل رئيسية وهي:

1-مرحلة طلائع الفتح:

وهي مرحلة استطلاعية للمنطقة، وتجلت في:

1-حملة عمرو بن العاص رضي الله عنه سنة 22هـ-642م، واستطاع هذا الأخير فتح برقة وطرابلس وكان هذا الفتح في عهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يأذن لهم بفتح بلاد المغرب لأنه أراد من وراء ذلك أن يثبِّت أقدام المسلمين في مصر وطرابلس أولا.

2-حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح 27هـ-647م :

تم تعيين عبد الله بن سعد بن أبي سرح واليا على مصر واستأذن الخليفة عثمان رضي الله عنه في فتح افريقية، فجمع الخليفة عثمان رضي الله عنه كبار الصحابة واستشارهم في ذلك، فأشاروا عليه بفتحها، وبهذا دعا عثمان رضي الله عنه للجهاد، وأسندت قيادة الجيش إلى الحارث بن الحكم بن العاص على أن يكون تحت إمرة والي مصر عبد الله بن سعد فخرج الجيش قاصدا افريقية عام 27هـ-668م ولما وصل إلى برقة التحقت به حامية بقيادة عقبة بن نافع، سمي هذا الجيش **بجيش العبادلة** لوجود أغلب من سمي بـ"**عبد الله**" من كبار الصحابة فيه فكان، عبد الله بن الزبير بن العوام، عبد الله بن العباس، عبد الله بن جعفر، عبد الله بن عمر بن الخطاب، عبد الله بن مسعود، عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، ، عبيد الله بن عمر، عبد الرحمن بن أبي بكر..... وغيرهم من كبار الصحابة، وفتح هذا الجيش العظيم مدينة سبيطلة. وفي عام 28هـ-648م رجع عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى مصر، وتجنب العرب أي اشتباكات مباشرة مع القوى البيزنطية في البر وهذا لمدة تقارب ثلاثة عشر عاما، الا انهم لم يتوقفوا عن حملاتهم البحرية مما دفع عبد الله بن أبي سرح تركيز جهوده لبناء أسطول عربي من أجل انهاء سيطرة البيزنطيين على البحر. وقعت بعد ذلك الفتنة التي كان سببها قتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وولي بعده علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبقيت افريقية على حالها إلى ولاية معاوية بن أبي سفيان الذي صار خليفة المسلمين سنة 41هـ-661م.

3-حملة معاوية بن حديج الكندي 45هـ-665م

في سنة 45هـ/ 665م قاد معاوية بن حديج جيوش التحرير في شمال أفريقية وتميزت جهوده العسكرية في الاستيلاء على قابس وبنزرت وألحق هزيمة نكراء بالجيش البيزنطي في ميناء سوسة بسرية كان يقودها عبد الله بن الزبير في حين سيطرت سرية عبد الملك بن مروان على حصن جلولاء كما اقتحمت قوات رويفع بن ثابت جزيرة جربه وأغارت قوات عبدالله بن قيس الغزاري على جزيرة صقلية فنال من سرقوسه كبرى مدن الجزيرة ورجع سالما. وكلل جهوده العسكرية ببعض الخدمات العمرانية حيث عرف عنه انه كان أول من اتخذ قاعدة عسكرية ثابتة لقواته في إقليم قمونيه الذي أطلق عليه اسم القيروان وحفر بجواره أبار يشرب منها الجند خيولهم وسميت أبار حديج وبذلك يكون ابن حديج أول قائد عربي في أفريقية اختار القيروان منطقة ينزل فيها الجند.

2-مرحلة تثبيت الفتح:

1-حملة عقبة بن نافع الأولى 50هـ-671م:

كان عقبة بن نافع الفهري مقيما في برقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص وفي سنة 50هـ-671م أمره الخليفة معاوية بن أبي سفيان ان يواصل فتح بلاد المغرب وأرسل اليه عشرة ألف فارس للجهاد معه، وأعاد عقبة بن نافع في بناء مدينة القيروان سنة 49هـ، وانتهى من بنائها سنة 52هـ، وعلى مر الأيام عمرت بكثير من الدور والمساجد والمنشآت العسكرية، واجتذبت هذه المدينة عددا كبيرا من البربر فأعلنوا اسلامهم وما كاد عقبة يفرغ من بناء مدينته حتى قرر في أواخر عام 55هـ-674م الخروج الى الغزو الواسع الكبير ليدين المغرب للراية العربية الإسلامية. وفي سنة 55هـ عزل مسلمة بن مخلد الأنصاري عقبة بن نافع وولى على افريقية مولاه أبا مهاجر بن دينار.

2-حملة أبو المهاجر بن دينار 55هـ-676م

تولى أبو المهاجر بن دينار حكم إفريقية، واتجه إلى مدينة قرطاجة وتمكن من دخولها، وبعدها توجه إلى بلاد المغرب الأوسط ووصل بفتوحاته إلى تلمسان، ويعد أبو المهاجر أول قائد إسلامي يدخل بلاد المغرب الأوسط، وبقي حاكما لبلاد المغرب إلى غاية سنة 62هـ/682م حيث تم عزله في خلافة يزيد بن معاوية وتعيين عقبة بن نافع مرة ثانية واليا على إفريقية.

3-حملة عقبة بن نافع الثانية (62 -64هـ) /(682-684م)

بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان سنة 60هـ/680م وتولي ابنه يزيد الخلافة أمر بعزل أبو المهاجر بن دينار عن إفريقية وتولي عقبة عليها للمرّة الثانية وذلك لأنّ الخليفة يزيد علم جيدا فضل عقبة وحماسه لنشر الإسلام. وعندما وصل عقبة إلى إفريقية قام بتعمير مدينة القيروان ثم قرر القيام بالغزو فترك بالقيروان حامية صغيرة من المسلمين واستخلف بها زهير بن قيس، وخرج عقبة على رأس الجيش في حملته الكبرى التي وصل فيها حتّى شواطئ المحيط الأطلسي وكان معه أعداد من البربر البرانس على رأسهم زعيمهم كسيلة، وقد تمكّن عقبة خلال تلك الحملة من بسط نفوذ المسلمين على قرطاجنة وحصن المنستير، كما انتصر على الروم والبربر وقضى على كل مقاومة لهم في المغرب الأوسط، غير أنّ عقبة أساء معاملة كسيلة زعيم البربر وأهانه مما أدّى إلى فراره هو وأصحابه من جيش المسلمين وقرر الانتقام.

بعد ذلك واصل عقبة الزحف نحو الغرب قاصدا المغرب الأقصى ودخله عام 62هـ/682م ويعتبر عقبة بن نافع أوّل مسلم وطأت قدمه تلك الأرض، وواصل زحفه حتّى المحيط الأطلسي وتذكر الرواية أنّه أدخل

قوائم فرسه في مياه المحيط ثم رفع يديه إلى السماء وقال عبارته الشهيرة:» اللهم اشهد أنّي قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتّى لا يعبد أحد سواك.»

وبعدها أسرع عقبة بالعودة متجها إلى المغرب الأوسط، حيث ترك معظم جيشه يعود إلى مدينة القيروان في حين اتجه هو على رأس فرقة صغيرة نحو الجنوب حيث مدينة تهّودة ليستولي عليها ويجعل منها قاعدة حربية أخرى للمسلمين في المغرب الأوسط، وهناك عاد كسيلة للظهور مجددا في جيش ضخم من البربر والبيزنطين، ودارت معركة عند تهودة سنة64 هـ/684م آثر فيها أبو المهاجر البقاء رفقة عقبة نافع واستشهدا معا، فلما علم نائبه بالقيروان زهير بن قيس البلوي باستشهاده قرر الانسحاب وأتجه إلى برقة وبذلك تمكّن كسيلة من الاستيلاء على القيروان دون صعوبة سنة 64هـ/684م، وضاعت القيروان من أيدي المسلمين لمدة خمس سنوات، وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من 40 عاماً قضاها في فتوح شمال إفريقيا، ابتداء بمصر وانتهاء بالمغرب الأقصى

4-حملة زهير بن قيس البلوي 69هـ-690م

بعد استشهاد عقبة بن نافع رضي الله عنه (سنة 63هـ أو 64هـ) في كمينٍ من قِبل البربر والبيزنطيين وارتداد كسيلة بعد إسلامه، سارع عبد الملك بن مروان إلى تعيين زهير بن قيس واليًا على إفريقية، وزوَّده بجيش كبير لقمع البربر، وتخليص المسلمين في تونس، واستعادة القيروان التي سقطت بأيدي البربر.

4 مرحلة استكمال الفتح:

1-حملة حسان بن النعمان 74-85هـ/693-704م

حملة حسان بن النعمان هي حملة عسكرية قادها حسان بن النعمان بن عدي الغساني في القرن السابع الميلادي. وقد قضى حسان بن النعمان على ثورات البربر وحلفائهم البيزنطيين، وأسس مدينة تونس لتكون قاعدة للمسلمين في المغرب الأوسط. كما فتح قرطاجنة وقضى على الملكة الكاهنة زعيمة الأمازيغ في معركة "بئر الكاهنة"، بعد أن انتصرت عليه في باغاية وكادت أن تقضي عليه لولا تصرفه السريع بسحب الجيش بأقل الخسائر، ثم عاد إليها بعد سنوات قضاها في برقة فلاقى الترحاب من الأمازيغ وقاتل كثيرون منهم معه كرها لتسلط الكاهنة عليهم، وقد طاردها حتى تواجها في معركة حاسمة بمكان في جبال الأوراس سمي حاليا ببئر الكاهنة حيث هزمها وقضى عليها.

2-حملة موسى بن نصير 89هـ-706م:

بعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن نعمان والي إفريقية ولى مكانه موسى بن نصير، وكان في أواخر 86هـ، وبعد ذلك سار متوجها إلى المغرب، فوجد البربر قد طمعوا في البلاد بعد مسير حسان، فجمع

الناس وألقى فيهم خطابا بيَّنَ فيه بوضوح الخطوط العريضة لسياسته في الفتح، قتال العدو القريب، حتى إذا انتهى من أمره تغلغل بعيدا بالتدريج لقتال العدو البعيد، واستطاع بفضل حنكته أن يقضي على جيوب المقاومة في إفريقية وخضعت له قبائل البربر، وجعل من منطقة القيروان وما حولها قاعدة أمنية ينطلق منها وهو آمن على خطوط مواصلاته، لتنفيذ خططه في الفتح متغلغلا في المغرب الأوسط والأقصى، فخرج من القيروان لفتح طنجة، وجعل على مقدمته مولاه طارق بن زياد، فلم يزل يقاتل ويفتح حتى بلغ مدينة طنجة، التي تم فتحها بالجيش الذي كانت تحت راية القائد العظيم طارق بن زياد واستخلفه موسى بن نصير على طنجة، وبفضل هذا الفتح تم الفتح الإسلامي للمغرب العربي